إشكالية الموت في شعر المتنبي

م. م. عبد السلام حازم محمد
العبيدي
معهد الفنون الجميلة للبنين

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ) علم من أعلام العربي والفكر الإنساني، طبع كثيرا من شعراء العربية بطابعه، فساروا على دربه، واقتدوا نهجه، كما لم يحظ شاعر من شعراء العرب بالاهتمام والدراسة قديما وحديثا بقدر ما حظي به المتنبي، ولعل شهرته في مملكة الشعر جاءت من جودة نظمه الذي يسحر القارئ، ويجعله مقادا له في رضى وإعجاب، يضاف إلى ذلك ((انه ينطق عن خواطر الناس)) كما قال القاضي الفاضل[١].

وقد اثأر هذا الشاعر ما اثأر من جدل ومناقشة، ولم يقف أثره عند الشرق بل امتد إلى الغرب، فكان حظه من الدراسة عظيما، وما نظن ان بحثنا هذا سيكون جديدا لم نسبق إليه، فما أكثر ما كتب القدماء والمحدثون عنه، ما أتيحت لهم وسائل البحث والاستقصاء، وأولئك وهؤلاء قد قالوا عنه كل ما يمكن ان يقال[٢] لا يكفي ما قاله عنه ابن رشيق، حيث قال عن المتنبي إنه شاعر ((ملأ الدنيا. وشغل الناس))[٣].

ويعالج بحثنا هذا جانبا نادرا في الدراسات الأدبية التي كتبت عن المتنبي وشعره، وعن إشكالية خاصة، هي إشكالية الموت في شعر أبي الطيب، على الرغم من ان شعره يحفل بكثير من الإشكالات والظواهر التي جعلته شاعرا نادرا فذا في ميدان الشعر العربي في كل زمان ومكان.

سيرته: أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ) من شعراء القرن الرابع الهجري، نشَّأته آدابه وعركته حوادثه [٤]، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة تسمى كندة، ومن هنا قال

بعض المؤرخين ان نسبه (الكندي) [٥] نسبة إلى قبيلة كندة المشهورة، وقال غيرهم ((هو ليس من كندة التي هي قبيلة)) [٦] بل نسبه إلى محلة كندة في الكوفة.

وهو احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصَمَد، أبو الطيب الجعفي الكوفي الشاعر المعروف بالمتنبي، وكان والده يعرف بـ(عبدان السقاء)[٧] ويقال إنه كان سقاء، يبيع الماء في حواري الكوفة.

ومثلما اختلف المؤرخون في نسب المتنبي، اختلفوا أيضا في حقيقة والده، اهو سقاء الكوفة، أم شخص أخر اختفت حقيقته لأسباب معينة، فحينما ينقسم المؤرخون على أنفسهم في تحقيق نسب المتنبي –وهذا كله له علاقة مباشرة وحميمية ومؤثرة في تشكيل أو إظهار (إشكالية الموت في شعر المتنبي كما سنرى لاحقا، فأنهم – أي المؤرخون – قد اختلفوا في هذا النسب) فقال بعضهم:[٨]

((احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي))[٩]

وقال آخرون:

هو ((احمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي))[١٠]

وقال غيرهم:

((احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي))

وزعم غير أولئك:

((ان أباه كان شيخا يسمى عبدان – مثنى عبد– السقاء وكان جعفيا))

وتقف مجموعة أخرى على الجانب البعيد من هذه الآراء كلها، ومن هؤلاء (طه حسين وعبد الغني الملاح ومحمود محمد شاكر وإبراهيم العريض وعدد من المؤرخين الأجانب، ومنهم ادم متز وادلر وغيرهم).

يقول طه حسين في كتابه (مع المتنبي):

((أكان المتنبي يعرف أباه ؟ قال المؤرخون: نعم، ولم يقل المتنبي شيئا فأنت تقرا شعره أو ديوانه من أوله إلى أخره وتقرؤه مستانيا متمهلا، فلا تجد فيه ذكرا لهذا الرجل الطيب الذي أنجب للقرن الرابع – والعالم – شاعره العظيم.

لم يمدحه المتنبي، ولم يفخر به، ولم يرثه المتنبي، ولم يظهر الحزن عليه حين مات!، أكان ذلك لان المتنبي لا يعرف أباه! أم كان ذلك لان المتنبي عرف أباه ولكنه لم ير له خطرا(أي لا قيمة تذكر)!.

أكان المتنبي يعرف جده ؟ لا يحدثنا ديوانه بشيء، ومن اعرض عن ذكر أبيه لا يستغرب منه ان يعرض عن ذكر جده، ومن لم يعرف أباه لم يعرف جده!))[١١].

ويبتعد (عبد الغني الملاح في كتابه(المتنبي يسترد أباه) بعدا كبيرا في رأيه من طه حسين وبقية المؤرخين، حيث ينسب المتنبي إلى اسم كبير من أشراف العلويين، حيث يقول:

((احمد (المتنبي)بن محمد المهدي بن الحسن (العسكري) بن علي (الهادي) بن محمد (الجوادبن علي (الرضا) بن موسى الكاظم بن جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) بن الحسين (الشهيد) بن علي بن أبي طالب)) [١٢].

أي نسب المتنبي ليس (كنديا من قبيلة كندة) وليس (جعفيا من كهلان) أو هذا في الأقل ما يراه طه حسين وعبد الغني الملاح وآخرون.

ومن هذا الغموض بالذات في تحقيق نسب المتنبي ومن هو أبوه وجده وقبيلته، من هنا تشكلت مجموعة أسئلة في ذهن الشاعر أبي الطيب، وضعت الخطوط الأولى لإشكالية الموت في شعره، مرورا بمفارقة وجدلية أصله (الوضيع – العظيم) الذي اثر في نفسيته وسلوكه وشعره تأثيرا عظيما، بدا واضحا في اغلب قصائده.

ولن نبحث في نسب جد المتنبي أو جدته أو والدته، فهذا لا يؤثر كثيرا في مجالات هذا البحث الخاص بإشكالية الموت في شعره.

كان المتنبي شاعرا مغلقا شديد العارضة راجح العقل عظيم الذكاء، قدم الشام في صباه واشتغل في فنون الأدب ولقي في رحلته كثيرا من أئمة العلم، فتخرج عليهم واخذ عنهم،

وكان من المطلعين على أوابد اللغة وشواردها حتى انه لم يسال عن شيء إلا إستشهد بكلام العرب من الشعر والنثر.

وقيل سمي بالمتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة من أعمال الكوفة [١٣] فلما ذاع أمره وفشا سره، خرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيد فآسره ولم يحل عقاله حتى استتابه.

ولم يمض ردح من الزمن على تخلية سبيله حتى الحق بالأمير سيف الدولة الحمداني، وكان ذلك سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م)، فمدحه، فأحبه وقربه وأجازه الجوائز السنية وأجرى عليه كل سنة ثلاثة ألاف دينار عدا ما كان يهبه من الاقطاعات والخلع والهدايا المتفرقة[١٤].

وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة، فيتكلمون بحضرته، فوقع بين المتنبي وابن خالويه كلام، فوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح كان بيده فشج وجهه، وكان سيف الدولة حاضرا فلم يدافع عن أبي الطيب فخرج مغاضبا ودمه يسيل وكان ذلك سببا لمغادرته حلب سنة(٣٤٦هـ-٩٥٧م) فسار إلى دمشق وألقى فيها عصاه ولم ينظم هناك قصيدة إلا مدح فيها سيف الدولة أو ذكره بها لكثرة محبته له، ثم ذهب إلى مصر ومدح كافورا الإخشيدي وفي نفسه مطامع، ولما لم ينله كافور رغائبه غادر مصر وهجاه بعدة قصائده مشهورة [١٥].

وبعد ان غادر مصر ذهب إلى بغداد فبلاد فارس ثم مر بـ(أرجان) فـ(شيراز) ومدح عضد الدولة بن بويه فأجزل عطيته، ثم انصرف من عنده راجعا إلى بغداد فالكوفة وذلك في أوائل شعبان سنة ٣٥٤هـ(شباط ٩٦٥م) فعرض له فاتك بن أبي جهل الاسدي في الطريق فاقتتلوا حتى قتل المتنبي مع ولده محسد وغلامه مفلح على مقربة من دير العاقول في الجانب الغربي من سواد بغداد.

وكان مقتله في ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤هـ(٢٧ أيلول سنة ٩٦٥م) (١٦)، ويختلف المؤرخون في أسباب قتله[١٧]، فمنهم قال ان السبب هو تلك القصيدة التي هجا بها ضبة

شقيق والده فاتك المذكور، ومنهم من قال ان السبب هو كثرة الأموال والجواهر التي أهداها له عضد الدولة فاطمع فيه اللصوص فقتلوه، ومنهم من قال ان هناك من كان يحوك المؤامرات المستمرة لتشويه سمعة المتنبي وشعره، وثم تدمير هذا الصرح الشعري العظيم عن طريق إرسال من يقتله وهو في طريق عودته إلى الكوفة، وليس مهما من يكون السبب، ولكننا نعتقد وان هذه الأسباب الثلاثة قد اجتمعت بطريقة وكانت السبب المباشر لاغتيال المتنبي.

شخصيته:

يقول طه حسين ((ان مولد المتنبي كان شاذا، وان المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها، ولم يستطع ان يلائم بين نفسه الشاذة وبين البيئة الكوفية التي كان يراد له ان يعيش فيها))[١٨]

ويقول الدكتور عمر الطالب ((تميزت شخصية المتنبي بحالتي القلق والاضطراب، كما تميزت بالانشطار النفساني الذي كان مسؤولا عن تعميق حس التضاد في وعيه الفني، وهذا التخلخل الذي كان يعيشه المتنبي، هو انكشاف ذات لتخلخل يجري في الواقع الموضوعي، فالحضارة العربية تنهار، والمتنبي يعيش قلق انهيارها على مستوى بنية الخطاب الشعري))[١٩].

فالمتنبي كان شاعر التناقضات، وشاعر المفارقات، وشاعر الجدليات، وهذا يجعلنا نقسم شخصيته على ثلاثة أقسام هي:

- الشخصية الاجتماعية.
- الشخصية السياسية.
- الشخصية الشعرية.

وهذه التقسيمات الثلاثة هي التي ستحدد طبيعة إشكاليات الموت في شعر المتنبي، وسيظهر واضحا سبب أو أسباب التخلخل في شخصيته، هذه الشخصية الإشكالية المركبة والمعقدة.

الشخصية الاجتماعية:

إذا كان المتنبي قد ولد من أب مجهول أو شبه مجهول (عبدان السقاء)، وأم لم يذكرها الشاعر في بيت من ديوانه الكبير كله، فإذا كان المتنبي قد جاء من نسب أو أصل متواضع (وضيع) لا قيمة له، فمن أين للمتنبي المجهول النسب، الفقير المنشأ[٢٠]، اليتيم الذي لم يرثِ والده ببيت شعر واحد، ومن أين لهذا المتنبي المجهول لدى بعض المؤرخين والنسابين ان يقول:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود [٢١]

أنا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وكيف قال في صباه ارتجالا: [٢٢]

أي محل ارتقي أي عظيم اتقي

وكل ما خلق الله ومالم يخلق

محتقر في همتي شعرة في مفرقي

هل هذا الشاعر الذي قال هذه الأبيات، الشاعر المعجب بشجاعته وأدبه وأرائه التي أدت به إلى الثورة وألقت به في السجن، وقد تجاوز كل حد فمكن، هل هذا الشاعر، هو الشاب المجهول بن سقاء الماء (عبدان) النكرة، أي تناقض هذا وأية مفارقة؟

الشخصية السياسية:

يقول (عبد الغني الملاح) [٢٣]:

((كان المتنبي يطالب بنسب مهدور – نسبه العلوي الشريف – ومجد كان مرشحا له بحكم صلته المباشرة بذلك النسب – أي ان المتنبي هو ابن أخر أئمة العلويين أو المهدي المنتظر – ولكن الأقدار هي من إرادة الله جعلته يكافح بمرارة من اجل استرداد حقه في الملك والإمامة، فقال المتنبي: [٢٤]

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهمُ من طول كا التثموا مردُ

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا قليل إذا عدوا كثيرٌ إذا شدوا

فحق المتنبي المستلب إذن يرتبط بناس متلثمين باستمرار أو بتعبير أخر بنأسٍ متنكرين أو متخفين أو غائبين من كثرة اختفائهم....

وهؤلاء لابد ان يكونوا أصحاب (قضية) تدعوهم إلى الاختفاء أو (الغيبة)، وهؤلاء لابد من ان يكونوا من العلويين الذين تطارد فلولهم دولة بني العباس للانقضاض عليهم وإبادتهم.

ويقول طه حسين في شرح بيت المتنبي:

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حاكما

يقول حسين ((يتصل هذا البيت بالحياة السياسية أو الشخصية السياسية للمتنبي، فقد كان المتنبي ثائرا على نظام الحكم المستقر بالكوفة، ضيقا به، راغبا في تغييره أو جادا التغيير، ولعل هذا يقنعنا ان طفولة المتنبي لم تكن طفولة عادية مألوفة))[٢٥]

وهناك أمثلة أخرى وأدلة كثيرة على ان المتنبي كان رجل سياسة مثلما كان رجل شعر وإبداع، ولا نجد داعيا للاسترسال بهذا الموضوع ولكننا أردنا ان نبين ان شخصية المتنبي كانت شخصية جدلية إشكالية أثرت بشكل مباشر على صنع إشكالية الموت في شعره.

الشخصية الشعرية:

يطول الحديث لو تحدثنا عن هذا الشاعر الذي بشعره ملا الدنيا وشغل الناس، ولكنها نأخذ مقتطفات واراء في شخصيته الشعرية من هنا وهناك.

يجب علينا أولا ان ننظر في شعر المتنبي من حيث انه مظهر لشخصية تاريخية تتأثر بالمؤثرات الخارجية، فسنجد ان المتنبي شاعر من شعراء المعاني، جعل أكثر عنايته بالمعنى، ولعلَ قول ابن جني ((فأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها، واستيفاؤه لها فَمِمّا لا يدفعه إلا ضد، ولا يستحسن معاندته إلا ند))[٢٦]، خير شاهد على قولنا هذا فهو قد خلا – إلا في القليل – من القيود التي قيد أبو تمام وشيعته الشعر بها – وخرج بالشعر عن أساليب العرب التقليدية، فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي[٢٧]، ولقد حظي شعر المتنبي بالحكم والأمثال

واختص بالإبداع في وصف القتال، والتشبب بالأعرابيات، وإجادة التشبيه، وإرسال المثلين في بيت واحد، وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإبداع المديح، وايجاع الهجاء[٢٨] واهم ما يميز شخصية المتنبي الشعرية: بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس، ومشاغل الناس، وأهواء القلوب، وحقائق الوجود، وأغراض الحياة، لذلك كان شعره في كل عصر مردا لكل كاتب، ومثلا لكل خاطب، وهو من هؤلاء النوادر الذين يعرفون بالبيت الواحد من أشعارهم، بل بالشطر المنفرد من البيت، لأنه قد عرف بأبياته التي سارت مسير الأمثال، ويقع النظر على حكمه وأمثاله حيثما تقلبت صفحات الديوان بغير إطالة ولا إنعام بحث، وهي خلاصة تجارب حياة، بما وسعت من أمل ويأس، وفرح وحزن، وفلاح وخيبة، وحب وبغض، وخلاف ووفاق[٢٩].

ولسنا هنا بصدد الحديث عن عظمة شعر المتنبي، فهو أشهر من نار على علم، ولكننا نحاول ان نجمع خيوط وتفاصيل وأسباب إشكالية الموت في شعره، وكل ما ذكرناه في الصفحات السابقة من هذا لهو توثيق وتحقيق سيفيدنا ونحن نتحدث عن هذه الإشكالية في شعر أبي الطيب.

إشكالية الموت في شعره:

المنطق يقول إذا كان المتنبي من أصل وضيع، فستتشكل لديه عقدة نقص (اجتماعية–سياسية) تدعوه لتغطية هذا النسب المتواضع من خلال الحصول على مناصب شريفة عالية تغطي هذا النسب شبه المجهول، والمنطق يقول: إذا كان المتنبي من أصل أمراء وأئمة أشراف، فمن الطبيعي ان يحاول الحصول على حقوقه كأمير أو ابن أمام أو ابن ملك.

من هنا يتضح لنا ان عظمة شخصية المتنبي وكبرياءه ومساواة نفسه مع الملوك والأمراء في الحالين هو أمر واقعي ومقبول.

ومن هنا يشعر المتنبي بالغربة ويعصره الألم، بعدما رأى نفسه – وهو صاحب الهمة والعبقرية والنسب الشريف – مهانا بين أناس ساقتهم حظوظهم إلى اعتلاء المناصب والتحكم

في رقاب الناس، فنظم قصيدته الميمية المشهورة التي صب فيها ما يدور في صدره من هم وأبان عن الواقع المرير الذي انتاب الأمة آنذاك... وأولها: [٣٠]

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

بأجسام يخر القتل فيها وما اقرأنها إلا الطعام

ويوما بعد أخر يجد المتنبي نفسه عظيما غريبا في كل ارض يزورها على الرغم من كثرة الترحاب به وإكرامه من الملوك والأمراء، إلا ان أعداء النجاح وأعداء العبقرية لا يتوقفون يوما عن مؤامرتهم الدنيئة في تشويه شعر المتنبي وتدمير شخصيته العظيمة [٣١]، فهم من ضربه بحضرة سيف الدولة، وهم من ألف عنه كتاب ((الكشف عن مساوئ شعر المتنبي))، وهم من سجنوه، وهم من أهانوا عبقريته، وهم اضطروه على مديح الذميم والقبيح، وهم تأمروا عليه في مجالس الملوك والأمراء بغير حق ولا ذنب....وهم....وهم!.

وتحت هذا الضغط العظيم من الظلم وتردي أوضاع البلاد، وحقد الحاقدين وحسد الحاسدين، تحت كل هذا الضغط، صرح المتنبي:

وأصر قلبه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم[٣٢]

مالي اكتم حبا قد بره جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأمم

وما توصلنا إليه من كل ما تقدم ان المتنبي قد وقع تحت ثلاثة أنواع من الضغوط العظيمة التي سببت وشكلت ظاهرة أو إشكالية الموت في شعره وهي:

- ضغط شديد (داخلي – نفسي) وهو ما يتعلق بالظلم الذي وقع على عبقريته الشعرية.
- ضغط (خارجي – داخلي) وهو يختص بنسبه وغموض عائلته وقبيلته واصله الحقيق ان كان متواضعا أم عظيما.

- ضغط (خارجي) وهو سلسلة المؤامرات والخطط الخبيثة التي أسسها أعداء عظمة المتنبي وعلوه فوق أسمائهم وأعمالهم.

هذه الضغوط الثلاثة كانت تطارد المتنبي ليل نهار حتى في منامه ويقظته، لذلك قال بعض الباحثين المعاصرين ان المتنبي لم يقتل في دير العاقول بل انتحر[٣٣] فهناك كثير من الأدلة تثبت ان المتنبي في أواخر أيامه قد فقد أماله العريضة في الحياة، فلا ولاية يحصل عليها من كافور الإخشيدي، ولا منصبا من سيف الدولة، ولا مركزا يتبوأه من هذا الملك أو ذلك، ولا خيل وليل ولا بيداء، هذه كلها لم تعد تعرفه، ولم تعد تحقيقا لأحلامه العظيمة، أحس المتنبي انه فقد كل شيء عظيم وعزيز كان يتمناه في الحياة ولم يعد له إلا الموت الحل الأفضل لكل شيء فيما تبقى من حياته.

دلائل وإثباتات انتحار المتنبي:

١. كان المتنبي قد مر بابي نصر محمد الحلبي، فأطلعه على أمر فاتك الاسدي وتخطيطه مع جماعته لاغتيال المتنبي في طريق عودته إلى الكوفة، ونصحه بان يصحب معه ما يكفيه من الحماية والحراس في الطريق، فقال المتنبي وهو يزداد أنفة وعنادا وأبى يصحب معه أحدا: [٣٤]

((أنا والجزار في عنفي، فمآبي حاجة إلى مؤنس))

ثم قال قولا عظيما لا يليق إلا بالفرسان والأبطال:

((والله لا ارضي ان يتحدث الناس باني سرت في خفارة غير سيف))

وحذره أبو النصر كثيرا فما كان منه إلا ان أجاب:

((ابنجو الطير تخوفني ومن عبيد العصا تخاف علي، والله لو ان مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون لخمس، وقد نظروا الماء كبطون الحيات، ما جسر لهم خف ولا ظلف ان يرده، معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين!))

فقال له أبو النصر: قل: ان شاء الله، فقال:

((هي كلمة مقولة لا ترفع مقضيا ولا تستجلب آتيا))

ثم ركب وسار فلقيه فاتك في الطريق فقتله.

وما نود قوله إلا توحي خطبة المتنبي بنوعين من المعنى: الأول – ظاهر، يوحي للسامع أو القارئ بالبسالة والبطولة والشجاعة الفائقة التي يصف المتنبي نفسه بها، وهي في الغالب بسالة كلام، يدعيها شاعر عاجز في النهاية عن مواجهته فاتك وجيشه الصغير. والثاني: باطن: وهو كلام يائس من الدنيا وما فيها بعد سلسلة من خيبات الأمل العظيمة التي أنهكته ودمرت معنوياته إذ فقد من خلالها الأمل بكل شيء، وهذا هو الانتحار، حينما تقاتل جيشا قاسيا غادرا وجبارا، تقاتله بنفسك وابنك وغلامك، فأين نسبة الفور في المعركة؟ هذا انتحار خطط أم لم يخطط له المتنبي ولكنه وقع على أية حال وانتهى بانتهاء حياة شاعر عظيم ملا الدنيا وشغل الناس.

٢. ٢. إذا كان المتنبي قد طلب من الملوك والأمراء الذي مدحهم عزا وجاها ومالا، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فانه وهذا أمر عجب قد طلب من كافور الإخشيدي (ضيعة) أو (ولاية)، حيث يقول: [٣٤]

أبا المسك هل في الكاس فضل أناله فاني اغني منذ حين وتشرب

وهبت على مقدار كفي زماننا ونفسي على مقدار كفيك تطلب

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وهذا تحول نفساني خطير في شخصية وحياة المتنبي، فهل كان أبو الطيب يتوقع من (العبد المنجوس المنكود والعصا معه) ان يهبه ولاية من ولايات مصر العظيمة ايام زمانها المجيد ؟

هذه إشارة إلى ان ذاكرة المتنبي تعبت وعزيمته خارت وأخر أماله العظيمة احترقت بأرض مصر وعلى يد الإخشيدي، الذي ضرب عليه حصاراً وإقامةً جبريةً ومنعه من السفر خارج مصر عندما علم ان المتنبي إذا غادر مصر فأول عمل يقوم به سيهجو كافورا ويحط من قدره

وقيمته، ولكن المتنبي ينجح بالهرب من مصر ليلة العيد وانشغال كافور بهذه المناسبة، ويصل في سفره ارض العراق فيجد ان المحتلين البويهيين قد سيطروا على ارض العراق.

٣. التأكيد الأكبر على حقيقة انتحاره وجدناه في شطر بيت من أخر قصيدة ارتجلها المتنبي في معركته مع فاتك الاسدي حيث قال:

((ولو شئت نجتني من الخيل نهدة))[٣٦]

وهذا اعتراف واضح انه كان بإمكان المتنبي ان يطلق العنان لفرسه أو حصانه فيتمكن من الهرب من فاتك وجماعته بسلام، ولكنه لم يفكر بالهرب ولم يبحث عن نجاة وفضل الموت في ساحة المعركة.. لماذا ؟

كان المتنبي فارسا شجاعا، ولكن ليس لتلك الدرجة التي يقتل نفسه فيها (إذا لم يكن انتحارا) ويرى فاتكا يذبح ابنه محسدا بين يديه ويقتل غلامه المسكين(مفلح) بلا ذنب أو جريرة.

٤. ٤. لم يذكر شاعر عربي الموت وإشكالاته بهذه الكثرة التي أصبحت لازمة في شعر المتنبي، وهذا ظاهرة واضحة ان الإحساس (بالموت = الحل) كان يتنامى يوما فيوما في صدره وأفكاره وأشعاره نتيجة الاندحارات النفسية وخيبات الأمل العظيمة التي يواجهها المتنبي كل يوم.

إشكالية الموت في شعره:

يمكن ان نقسم هذه الإشكالية على عدد من الأقسام وعلى النحو الأتي:

الموت دواء:

١- قال المتنبي وهو يهجو كافورا ويمدحه بآن واحد (الهجاء مضمر مبطن) والمدح(معلن) ويحذره أيضا: [٣٥]

تفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا

تمنينا لما تمنيت ان ترى صديقا فاعيا أو عدوا مداجيا

إذا كنت ترضى ان تعيش بذلة فلا تسعدن الحسام اليمانيا

ولم نسمع أو تقرا ان شاعرا مدح ملكا أو أميرا أو شخصية كبيرة وابتدأ مدحه بذكر(الموت) و(المنايا) و(عدوا داجيا) و(تعيش بذلة) وغير ذلك مما ورد في القصيدة ولم نذكره.

فهل كان (موت المتنبي هو الدواء الشافي للأمراض النفسية والسياسية والإبداعية العظيمة التي حلت على الشاعر كصاعقة فقضت على أمانيه الجميلة؟)

وهل (كانت أماني المتنبي هي الموت (أو المنايا) ؟

هل كان المتنبي يرثي نفسه وهو يمدح كافور الإخشيدي، ويذكره بأنه فقد كل شيء وأخر الأماني هي عند كافور فإذا لم يكن ذلك فالموت أجدى وارحم ؟

هذه الأسئلة لا تتوقف إلا عند حقيقة واحدة ان المتنبي يحذر نفسه ويحذر كافورا ان أخر الآمال العظام هي في مصر فان لم ينلها فالموت هو الدواء.

٢- الموت رأيا:

لا يتجه اتجاه تحليل عقد المتنبي النفسية في نسبه وسجنه وهمومه اتجاها سطحيا لا يفيد غير اللغة وقواعدها.

ويكون بعيدا عن معاني الأزمات النفسية والانفعالات الإنسانية التي تبوح بالحقائق عن طريق الرموز والتلميحات غير المباشرة وبدون شعور المتكلم نفسه.

ولم تستقر التفاعلات النفسية عن المتنبي فنجده ينوء تحت ثقل الترسبات نفسها [٣٧] ويقذف بعضها بوجه على بن إبراهيم التنوخي بعد عودته إلى بلاد الشام من الكوفة:

أفكر في معاقرة (المنايا) وقود الخيل مشرفة الهوادي[٣٨]

زعيم للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي

أليست هذه دعوة ليكون الموت رأيا واضحا لهذه العقد والمشاكل العظيمة التي تراكمت على نفس المتنبي من كل مكان فكان في (معاقرة المنايا)!

٣- الموت طعمه واحد:

قال المتنبي بعد معركة إنطاكية: (٣٩)

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم (الموت) في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

٤- الموت المعنوي: كانت أحزان والآم وانتكاسات المتنبي تتفاقم وتتجمع على قلبه كالجبال، لذا كان يرى في تمني الموت تنفيسا لهذا الكرب العظيم الذي كاد يحطم روحه ويحيله إلى كتلة غضب قد تنفجر بأية لحظة.

فالمتنبي عندما يمدح أحدا يذكر في مدحه الموت

وعندما يشتم أحدا يذكر الموت..

وعندما يفارق صديقا فيشبه هذه الفراق بالموت.

وعندما يشتاق لجدته التي ربته يذكرها بالموت.

فالموت حاضرا في شعر المتنبي ونفسيته وروحه المعذبة.

يقول في جدته التي ربته ثم ماتت بعيدة عنه: (٤٠)

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقا وصما

احن إلى الكاس التي شربت بها واهوى لمثواها التراب وما ضما

هكذا رثاها بثورة على خصومه وأعدائها، ثم بقول:

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سرورا بي فمت بها غما

ويضيف قائلا:

حرام على قلبي السرور فانني اعد الذي ماتت به بعدها سما

٥- الموت حلا: وأخيرا تأتي نهاية لمطاف في معركة دير عاقول بين المتنبي وفاتك الاسدي، معركة غير متكافئة، كان بإمكان المتنبي تجاوزها وعدم خوضها، ولكنه وجد فيها الحل

النهائي لكن مصائبه والأمة واحباطته وذلك في إنهاء حياته بهذه الطريقة الانتحارية الواضحة حلا لجميع مشاكله ونسمعه وهو يخوض غمار المعركة ويرتجل شجاعة وانتحارا أبياتا كان هذا الشطر من احد الأبيات هو البيان الفصل في مقتل المتنبي:

((ولو شئت نجتني من الخيل نهدة))[٤١]

ما شاء أبو الطيب المتنبي ذلك أو لم يشأ فقد وقع المحذور وانتهت حياة عظيمة بحادثة تافهة سخيفة.

شاعر غامض عبقري فذ لا نظير له في الشعراء العرب، (ولد ميتا) أو هكذا تبلورت الأمور فالمتنبي كان يموت كل يوم منذ ولادته وحتى مقتله، كل يوم تكبر حوله المصائب، يكثر حاسدوه، ويتآمر عليه مبغضوه كالوزير الملهب وغيره، ولكنه كان يكافح على ألف جبهة، غير انه بدا تدريجيا يفقد أماله واحدا بعد الأخر ولم يجد حلا إلا بالالتجاء إلى الصديق الوفي عند المحن، نعم التجأ إلى الموت، لينهي بذلك الفصل الأخير من حكاية أعظم شاعر نطق بالعربية... ملا الدنيا وشغل الناس.

الهوامش والإحالات

١- الوشي المرقوم، ابن الأثير: ص٥٧.
٢- شرح ديوان أبي الطيب، لأبي العلاء: ج١، ص٧٥.
٣- العمدة، ابن رشيق: ج١، ص١٠٠.
٤- شرح ديوان أبي الطيب، ج٦، ص٧٧.
٥- أبو الطيب (سلسلة نوابغ العرب): ص٢١.
٦- ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية: ص٥.
٧- المتنبي (شاعر العرب): ص١.
٨- المتنبي يسترد أباه، عبد الغني الملاح: ص١١.
٩- مجلة المقتطف، محمود محمد شاكر، ص٣٠.
١٠- مع المتنبي، طه حسين: ص١٢١.
١١- المتنبي يسترد أباه: ص٢٠٣.

١٢- ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية: ص٥.

١٣- انظر: ديوان المتنبي: ص٥، الأدب في العصر العباسي: ص٢٢٧، انظر: مع المتنبي، ص١١٣.

١٤- مع المتنبي، طه حسين: ص٦١-٦٢، انظر: أمراء الشعر العربي: ص٣٣٢: انظر ديوان المتنبي: ص٥.

١٥- لأمر بين المتنبي وكافور: د. عمر الطالب، مجلة الرافد: ص٧٣.

١٦- ديوان المتنبي: ص٦، أمراء الشعر العربي: ص٣٣٨.

١٧- انظر بهذا الصدد: أبو الطيب (نوابغ العرب)، يذكر ص٥٨:((هذه العصابة التي جندها فاتك لاغتيال المتنبي لم يكن حافزها ان الشاعر قد هجا(حنبة) فلقد كان دافع فاتك الحقيقي هو الاستيلاء على ما كان بحوزة المتنبي من ذهب وهدايا عضد الدولة)) أي ان فاتك قد اصطاد عصفورين بحجر، فقد انتقم لـ(حنبة) ونهب أموال وجواهر المتنبي. وانظر: أمراء الشعر العربي: ص٣٣٨ حين يقول: (خرج عليه فاتك وكان مع المتنبي ابنه محسد ونفر من غلمانه وجمال تحمل أموالا وتحفا كثيرة) وينظر: تفاصيل مقتل المتنبي في كتاب (ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، ص٢٥٠-٢٦٨).

١٨- مع المتنبي، طه حسين، ص٥٢.

١٩- الأمر بين المتنبي وكافور، د. عمر الطالب، مجلة الرافد: ص٧٣.

٢٠- الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٩، ص٢٢٦.

٢١- شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية – مصر – ١٩٣٠، ج١، ص٢٠٦.

٢٢- م.ن: ص٢٨٢.

٢٣- المتنبي يسترد أباه: ص٢١.

٢٤- ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية، ص١٩٨.

٢٥- مع المتنبي، طه حسين، ص٢٤-٢٥.

٢٦- الفسر، ابن جني، ج١، ص٢١.
٢٧- النقد المنهجي: ص٦٢.
٢٨- شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء: ج١، ص٩٦.
٢٩- م.ن: ص٩٦.
٣٠- شرح ديوان المتنبي، البرقوقي: ج٢، ص٢٢٨.
٣١- انظر رسالة الصاحب بن عباد (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي) حققه الشيخ محمد حسن آل ياسين في بغداد سنة ١٩٦٥ – عن الأدب العربي، د. ناظم رشيد: ص٢٢٣، وانظر: شرح ديوان المتنبي، ج١، ص٤٣٩، وانظر الشعر في رحاب سيف الدولة، ص٦٥.
٣٢- شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء، ج٣، ص٢٤٧.
٣٣- هل انتحر المتنبي، كمال عبد الرحمن، بحث مخطوط، ص٢٩.
٣٤- ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية: ص٤٦٨.
٣٥- شرح ديوان المتنبي، ج٢، ص٥٠٩.
٣٦- المتنبي يسترد أباه: ص٥٣.
٣٧- م.ن: ص١٢٣.
٣٨- ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية: ص٨٥.
٣٩- شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء، ج٢، ص٤٥٦.
٤٠- المتنبي يسترد أباه: ص١٢٩-١٣٢.
٤١- م.ن: ص٥٣.

المصادر المراجع

أولا: الكتب:

١- أبو الطيب المتنبي، سلسلة (نوابغ العرب ٣)، تحرير عدد من الأساتذة منهم: د. عز الدين إسماعيل ود. نبيلة إبراهيم وآخرون، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى في ١٩٧٤/٧/١.

٢- الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، كلية الآداب، جامع الموصل، ١٩٨٩.

٣- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط١١، نبيل المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، حزيران ١٩٧٧.

٤- ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان، ب.ت.

٥- رسالة الصاحب بن عباد (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي)، حققه الشيخ محمد حسن آل ياسين في بغداد سنة ١٩٦٥.

٦- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لأبي العلاء المعري، (معجز احمد) تحقيق ودراسة د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٢.

٧- شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية – مصر – ١٩٣٠.

٨- الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، د. سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.

٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٥.

١٠- الفسر، ابن جني، بغداد، ب.ت.

١١- المتنبي (شاعر العرب) – الناجحون – دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، شباط – فبراير، ١٩٨٧.

١٢- المتنبي يسترد أباه، عبد الغني الملاح، دار التآخي للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٤.

١٣- مع المتنبي، طه حسين، دار المعارف بمصر، الطبعة الحادية عشرة، ب.ت.

١٤- النقد المنهجي عند العرب، الدكتور محمد مندور، القاهرة، ب.ت.

١٥- الوشي المرقوم في حلل المنظوم، ابن الأثير، تح: د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي – بغداد، ١٩٨٩.

ثانيا: الدوريات:

١- لأمر... بين المتنبي وكافور (ماذا لقيت من الدنيا ؟) عرض ونقد: د. عمر محمد الطالب، مجلة الرافد، العدد (٤٣) مارس ٢٠٠١.

٢- مجلة المقتطف، العدد الصادر في ١/كانون الأول/ ١٩٣٦، محمود محمد شاكر.

ثالثا: البحوث:

هل انتحر المتنبي، كمال عبد الرحمن، بحث مخطوط.